الفصل العاشر

الإسلام والهند

لقد شهد العالم حروباً ثلاثاً دارت رحاها بين الهند الهندوسية وباكستان المسلمة على مدار نصف القرن المنصرم، وقد تكون الحرب القادمة بينهما -حال قيامها- حربا نووية. إن الصراع على إقليم "كشمير" كان البذرة الرئيسية لنزاع طويل بين الطرفين، تمثل فى حرب بالوكالة ما تزال مستمرة بينهما حيث تخوض جماعات "تحرير كشمير المسلمة" حرب عصابات ضد الحكم الهندى القمعى. كذلك، فقد نفذت الجماعات الإسلامية المتسمة بالعنف، والمرتبطة غالبا بالجانب الباكستانى، عمليات إرهابية دموية عديدة داخل الهند.

obeikandl.com

إن الهنود والباكستانيين لم ينسوا أبدا التقسيم الأليم للهند، والذى خطط له ونفذه الاستعمار البريطانى عام ١٩٤٧، والذى أسفر عن مقتل الملايين من الهندوس، والسيخ، والمسلمين أثناء الهجمات الوحشية ما بين الأطراف الثلاثة، والتى شهدت عمليات ترحيل واسعة للسكان المسلمين من الهند باتجاه دولة باكستان "الجديدة"، والهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند. فإذا لم يكن ذلك "محورا" للصراع بين الحضارات، فما الذى عساه يكون كذلك؟!

من بين جميع "الحدود" القائمة بين الإسلام والثقافات والحضارات الأخرى، تبرز الهند كحالة شائكة وحرجة للغاية. فالإسلام لا يقتصر على متاخمة الهند (إذ يوجد فى باكستان وبنجلاديش)، إذ عاشت أعداد كبيرة من المسلمين داخل الهند على مدار أكثر من ألف عام، فى ظل روابط وعلاقات بالغة التعقيد والثراء مع الهندوس هناك. وعلى امتداد التاريخ، اضطلع المسلمون بأدوار شديدة التنوع على

مسرح الأحداث بالهند : فهم تارة تجار مسالمون قاموا بنشر الإسلام فى الجنوب، وتارة غزاة فاتحون نزحوا من آسيا الوسطى نحو الشمال – إذ أنشأ المسلمون واحدة من كبريات "الحضارات الاندماجية" على مر التاريخ بين الإسلام والهندوسية، والتى تمخضت عن الإمبراطورية "الموغالية" العظيمة. ثم أضحى المسلمون، أخيرا، قلة منهزمة فى أعقاب تقسيم الهند عام ١٩٤٧ ... قلة توزعت بين باكستان (الحديثة آنذاك)، وبين الهند التى يحيون بها كأقلية يجرى التعامل معها على نحو تمييزى، ويعانى أفرادها اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. وتمثل الهند، كذلك، أول تناول لنا لحد من "الحدود" غير المسيحية فى تعامله مع الإسلام.

وفقا لسيناريوهاتنا البديلة "لعالم بلا إسلام"، تبدو الملامح فى الحالة الهندية أقل وضوحا. فعلى جانب، كانت الأمور لتختلف اختلافا واضحا ما لم يكن ثمة إسلام : إذ كان العالم سيحرم من المزيج الحضارى المبهر فيما بين الهندوس

والمسلمين، والذى انتظمته الإمبراطورية الموغالية. وفى الوقت ذاته، لم تكن الصراعات الدينية المؤسفة بين الهندوس، والمسلمين، والسيخ لتحدث إذا لم يكن ثمة إسلام. لذا، وفى هذا السياق، فقد يكون السؤال الأكثر إثارة : هل كان الصراع بين الهندوس والمسلمين أمرا محتوما لا سبيل إلى تجنبه؟ وهل كان لذلك "الحد" من حدود الإسلام" وتخومه أن يكون دمويا بالضرورة؟ ما السبب وراء ما نحن عليه الآن، وكيف بلغنا تلك الحال؟ وهل يتعلق الأمر، حقيقة، بالعنصر الدينى؟ أم يمكننا أن نعزو جذور المشكلة إلى سياسات بريطانيا التى تخدم مصالحها الذاتية، والتى اتبعتها إبان حكمها الكولونيالى للهند؟

إن اللقاء الأول للإسلام والهند قد مثل حدا ثقافيا جديدا للمسلمين : إذ لم تكن الهندوسية مجرد ديانة قديمة مركبة تتسم بسعة الانتشار وتعدد الأوجه، بل كانت كذلك أول ديانة يلقاها الإسلام من حيث عدم ارتباطها بديانات الشرق الأوسط، و"أهل الكتاب". إذاً، فقد مثلت الهندوسية خبرة بالغة الاختلاف للمسلمين، لما اتسمت به من تعدد للآلهة، وغزارة فى التصاوير الدينية غير المألوفة، ومزيج مذهل من الرموز البشرية والحيوانية والعناصر الميثولوجية، وكذا الرسوم العارية وشبه العارية فى الفنون الدينية للكثير من الملل الهندية – فجماع ما سبق قد أدى إلى جعل الهندوسية "صادمة" على نحو يفوق أية ديانة أخرى يمكن أن يشهدها علماء المسلمين. إلا أن متطلبات الواقع سرعان ما أدت إلى إحداث توافقات، فنشأ تعايش مضطرب فيما بين الهندوس والمسلمين.

لذا، فليس من المستغرب أن نجد مدارس "تأويلية" مختلفة تناولت كامل الخبرة الإسلامية فى الهند. فالقوميات، جميعها، تذهب إلى قراءة التاريخ على نحو ارتجاعى، أى أن مؤرخيها يسبرون أغوار التاريخ للتنقيب عن أسانيد وبراهين يكون من شأنها دعم مزاعمهم القومية والإقليمية وتأييدها لليوم والغد. فوفقا للقوميين الهندوس، فإن الديانة الهندوسية لها جذور ممتدة ضاربة فى أعماق التربة الهندية على نحو لا يضاهى. لذا، فإن أية ديانة أخرى تسعى لاختراق تلك التربة،

إما أن يتم استيعابها أو ينظر إليها باعتبارها متطفلاً دخيلاً. لذا، ينظر إلى كل من المسيحية والإسلام وفقا للمنظور الأخير – وذلك على أساس سياسى وثقافى بأكثر من كونه على أساس دينى. ويسعى كل من الإسلام والمسيحية إلى استقطاب الهندوسية لما فيه صالح كل طرف منهما. إن حقيقة وجوب كونه الرمز العالمى للهند، والأكثر انتشارا اليوم، هو المعمار الإسلامى المثالى لتاج محل – لتثير استياء بالغا لدى القوميين الهندوس. إلا أن الهند بدون المزيج الحضارى الذى مثلته الإمبراطورية المؤغالية كان لها أن تكون موضعا قفرا بلقعا يعانى تصحرا ثقافيا.

إن الوثائق الأكثر انفتاحا وليبرالية لهذا التاريخ ذاته لتزهو بالثمار الجنية للحضارة الهندوسية الإسلامية. إذ أثرت كل ثقافة فى الأخرى تأثيرا كبيرا فى مناح عدة بما يثبت القدرة الاستيعابية الإبداعية، وكذا المرونة التى يتمتعان بهما. بيد أن المسلمين الهنود، اليوم، قد أصبحوا أقلية محرومة داخل المجتمع الهندى الكبير الذى حكموه يوما، وأسهموا فى تشكيل بنيانه وقواعده. فقد جاء المسلمون إلى الهند من خارجها، ثم احتلوا صدارة المشهد، ثم أهبطوا إلى الدرك الأسفل، وأمسوا اليوم يتفكرون مليا بشأن وضعهم كأقلية فى ظل الأحوال الجديدة لدولة الهند الحديثة. ولعل ذلك المسار التاريخى المتنوع هو الذى أمد المسلمين الهنود برؤية ثاقبة بعيدة للإسلام فى مجتمع متعدد الثقافات، لا تدانيها رؤية أخرى على امتداد العالم بأسره.

إن المسلمين قد فتنوا بالهند لأسباب عدة: أولا، كونها واحدة من الأقاليم العديدة بجنوب وجنوبى شرق آسيا التى لم ينتشر بها الإسلام بحد السيف. إذ تم تعزيز العلاقات التجارية بين الملاحين العرب ممن مارسوا التجارة، وبين الساحل الجنوبى الغربى للهند قبل مجىء الإسلام بزمن كبير. ووفقا للوثائق الهندوسية، فإن أول نزوح فعلى للمسلمين باتجاه شبه القارة الهندية قد جرى فى أوائل القرن السابع الميلادى، واتخذ شكل الرحلات التجارية. ويذكر أنه قد جرى تأسيس أول مسجد بالهند فى كودونغالور، الواقعة حاليا بمقاطعة كيرلا، وذلك فى عام ٦١٢، فى

حياة النبى محمد.

ويرصد المؤرخون تمايزات بالغة ما بين طبيعة الإسلام فى شمال الهند، وطبيعته فى جنوبها. إذ جاء الإسلام ليدخل الهند مبكرا عبر الحدود الجنوبية، وذلك عن طريق التجارة والتبشير بالدين الجديد. أما الشمال، فقد دخل الإسلام هناك بعد عدة مئات من السنين كواحد من العديد من الغزاة -من آسيا الوسطى- الذين دخلوا الهند عبر الحدود الشمالية. ونتيجة لذلك، نجد صدى أوسع للتوترات ما بين المسلمين والهندوس فى شمال الهند مقارنة بجنوبه ... فالجنوب قد شهد اندماج المسلمين التدريجى ضمن نسيج الثقافة المحلية، مقارنة بالشمال الذى غزاه المسلمون بواسطة جيوشهم المكونة من مزيج من الفرس، والعرب، والأتراك، والمغول.

ولقد دخلت الجيوش العربية المسلمة شمال الهند فى ظل الخلافة الأموية بدمشق، وقامت بغزو السند، فى أقصى غرب شبه القارة الهندية. وفضلا عن ذلك، فقد جاءت الغزوات الحربية الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى. وأخيرا، قام القائد العظيم، بابور، ذو الأصول التركية المغولية والقادم من آسيا الوسطى، بتأسيس الإمبراطورية الموغالية، مع سقوط دلهى عام ١٥٢٦ . ولقد سيطر الموغال إبان أوج دولتهم على معظم الأراضى الهندية. إن الموغال أنفسهم قد مثلوا مزيجا من الثقافة التركية المغولية والثقافة الفارسية، وقد أدخلت اللغتان التركية والفارسية إلى الهند حيث كان لهما أثر كبير على الثقافة واللغة الهندية.

ووفقاً لما كتبه "ستيفن كوهين"، الباحث بمعهد بروكينغز :

بالرغم من اعتبار كل من الفاتحين اليونانيين، والهنغاريين، والشيشيين، والمسلمين شبه القارة الهندية على أنها امتداد لقواعد نفوذهم الخارجى، فقد انتهوا إلى النظر إلى العالم من خلال رؤية محورها الهند. لقد كانت القدرة الاستيعابية للمجتمع الهندى مذهلة على الدوام ... أما الإسلام فقد جلب تقنيات عسكرية جديدة

وأفكارا سياسية ودينية، بيد أنه لم يقم بتدمير الحضارة الهندية مثلما دمر ثقافة فارس ما قبل الإسلام. وأخيرا، فقد تم توحيد الهند على أيدى الموغال وفقا لنظام إمبريالى. ووفقا للترتيبات الجديدة، فقد تأثر الإسلام كثيرا بالهندوسية بالقدر الذى فاجأ الإسلام الهندوسية وقام بتطويرها.

أما الإسلام الصوفى، بما له من طابع توفيقى، فقد نال استحسان العديد من الهندوس، وأسهم فى تخفيف وطأة التأثير الإسلامى. بيد أن رجال الدين المسلمين لم يخلصوا أبدا إلى اتفاق فيما بينهم بشأن كيفية التعامل مع الهندوسية، ومن ثم الهندوس. لقد أمضى العالم الموسوعى الفذ، البيرونى، بعض الوقت فى الهند فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ملاحظا ومراقبا المجتمع. وخلص البيرونى، فى النهاية، إلى أن الهندوسية، رغما عن اشتمالها على آلهة متعددة، كانت ديانة توحيدية بالأساس :

"يؤمن الهندوس بأن الرب واحد، أزلى، بلا ابتداء ولا انتهاء، يفعل كيفما شاء، شديد الطول، حكيم، محيى، مقتدر، حفيظ. كذلك، فالرب متفرد فى وحدانيته، قدوس، منزه عن التشبيه، ليس كمثله شىء".

ولكن ماذا عن "الآلهة" المتعددة التى يتعبد لها الهندوس؟ يؤمن البيرونى بأن عبادة تلك "الآلهة" تعكس، بالضرورة، الجهل الدينى للفئات الدنيا من المجتمع التى تتعلق بها، أما الهندوسية كمفهوم فلسفى رفيع راق فتشارك الإسلام منهجه التوحيدى. وبغض الطرف عما إذا اتفق المرء مع هذا التأويل أم لا- والذى يرفضه، بالتأكيد، أغلبية "العلماء" المسلمين – فإن ما خلص إليه البيرونى هو أمر صارخ وصادم خاصة حينما يصدر عن عالم مسلم مثله.

وبالنسبة لأغلبية "العلماء" المسلمين فى الهند، فإن إدراج الهندوس ضمن "أهل الكتاب" يبدو غاية ثيولوجية مستحيلة، ولكن إذا لم يكن الهندوس كذلك، فإنه يمكن أن يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام. ولقد ذهبت الحماسة ببعض العلماء ممن

فرضوا اعتناق الإسلام بالقسر إلى القول بقتل الرافضين لاعتناقه. وتشير المصادر إلى أن معابد هندوسية قد تم تدميرها فى كثير من أرجاء الهند، فيما تم تحويل معابد أخرى لتصبح مساجد للمسلمين. ولعل الممارسة الأكثر شيوعا من استخدام العنف هى ما ورد عن أن الموغال قد قاموا برفع سعر الجزية المفروضة بغية الضغط على فقراء الهندوس للتحول إلى اعتناق الإسلام، والذى إن تم فسيؤدى إلى إعفائهم من دفع تلك الجزية. بل لقد تحول كثير من الهندوس ممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا إلى اعتناق الإسلام للانعتاق من ذلك النظام الطبقى الصارم، أو بغية الانضمام إلى النسق الثقافى الحاكم. ولكن لم يستطع الموغال، فى النهاية، إجبار الغالبية على التحول إلى اعتناق الإسلام، وقد كانوا أدركوا ذلك بالفعل، لذا فقد استقرت الأحوال وفقا لنوع من "التعايش البارد"، على الأقل من وجهة نظر "العلماء" المسلمين. ومن منطلق وظيفى، فقد أضحى الهندوس وكأنما هم من "أهل الكتاب"- بصورة اسمية فقط – حتى ولو كان ذلك غير مسموح به، وغير متوافق مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

وعلى الجانب الآخر، فعلى حين كانت أعداد قليلة من المسلمين تذهب لزيارة المعابد الهندوسية، كانت أغلبية الهندوس تبتهج لزيارة المساجد والأبنية الدينية الإسلامية كتعبير عن التوفيقية الهندوسية، وإيمانها بعالمية الدين ووحدة الوجود. إن الهندوسية لا تسعى إلى اجتذاب متحولين لاعتناق عقيدتها – فهى نسق مغلق لا يسمح، بالأساس، بانضمام معتنقين جدد، فالمرء يجب أن يكون منتميا للنسق منذ مولده. فإذا ما رغب المرء فى اعتناق الهندوسية، يتعين عليه، على نحو وظيفى، الانضمام إلى طبقة اجتماعية بذاتها وجماعة بعينها. ولكن، إلى أية طبقة سيتم قبول المتحول للانتماء لها قانونيا إذا افتقر إلى جماعة أو روابط قرابة؟ فدون طبقة بعينها تلازم المرء منذ مولده، يترك المرء ليحيا فى غلالة اجتماعية هندوسية من النسيان. وقد حدثت اندماجات لم تكن متوقعة. فعلى الصعيد الرسمى، لا يرحب الإسلام مطلقا باندماج تقاليد دينية مخالفة به. إلا أن الهند كانت قد شهدت، على

الأقل، تجربة فريدة لاندماج الإسلام مع الهندوسية، وهى إحدى بنات أفكار العقل المبدع للإمبراطور "أكبر" العظيم (١٥٤٢-١٦٠٥)، وهو حفيد الإمبراطور بابور. ويعد "أكبر" أحد أهم الحكام الموغال على مدار أربعة قرون.

وقد كان "أكبر" مدركا لفوضى العقائد المتصارعة داخل الهند، بما فيها الإسلام (السنة، الشيعة، الإسماعيلية)، والطوائف العديدة بداخل المعتقد الهندوسى، واليانية، والزرادشتية، والمسيحية، واليهودية. كذلك، فقد كان يتسم بالتسامح، والافتتان بالدين والمناقشات الدائرة حوله، بالإضافة إلى حرصه على جمع معتنقى العقائد المختلفة للتباحث بشأن القضايا الثيولوجية والأخلاقية. وكنتيجة لتلاقح الآراء المختلفة، توصل "أكبر" إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد دين واحد له حق ادعاء احتكار الحقيقة بأكملها، لذلك فقد قام بخطوة ثورية لاستحداث دين جديد أطلق عليه "الدين الإلهى"، والذى مثل مزيجا من الإسلام، والهندوسية، والمعتقدات الفيداوية Vedic، إلى جانب بعض المعتقدات المستقاة من المسيحية واليهودية. وقد كان "أكبر" يأمل، من خلال انتشار "الدين الإلهى"، أن يصل إلى وحدة تنتظم الهند لا يعكر صفوها أى تباين أو اختلاف دينى - ضرب من الواحدية الدينية !!

لقد كان المسلمون، بالفعل، على دراية بالعقيدتين اليهودية والمسيحية اللتين سبقتا الإسلام. أما "الدين الإلهى" فقد اشتمل عناصر من الصوفية والفلسفة والأخلاقيات وتقديس الطبيعة، مع التشديد على التسامح وقبول التنوع الدينى. ولم يكن هذا "الدين الإلهى" يعترف بوجود إله أو أنبياء أو كتب مقدسة. إلا أن ذلك المزيج من الأفكار الوثنية قد أثار حفيظة معظم "العلماء المسلمين"، الذين رأوا الفكرة برمتها تجديفا وهرطقة، بالرغم من ضرورة كونهم حذرين بشأن ما اقترحه الإمبراطور. وفى النهاية، فإن "الدين الإلهى" لم يكن ليتجاوز أعتاب القصر الإمبراطورى، فقد كان غاية فى الغرابة مفتقرا إلى أدنى ركيزة اجتماعية أو ثقافية. إلا أنه كان يمثل رؤية مميزة لفكر مسكونى مبكر، كذلك فقد ظل الإمبراطور "أكبر"

حاضرا فى ذاكرة الهندوس، إلا أنه لم يلق استحسانا أو قبولا لدى أغلب علماء المسلمين.

فإذا كان ذلك "الانصهار" الدينى قد بدا مهما، فقد كان المعمار الموغالى فريدا وآسرا ... ذلك المعمار الذى كان مزيجا رائعا من الفن الهندوسى والإسلامى مع نكهة فارسية غالبة جعلته الملمح الأكثر شهرة وخلودا من آثار الإمبراطورية. إن الأبنية العامة الخالدة المنتمية للحقبة الموغالية تظل منارات فنية خالدة إلى يومنا هذا، لعل أشهرها "تاج محل" الذى حقق كمالا منقطع المثال، وإن نافسته فى ذلك مجموعة من القصور والقلاع والمساجد والمدارس، تم تشييدها فى الأغلب بواسطة الحجر الرملى الأحمر. وقد كان للطراز الموغالى تأثير واضح على العمارة الإسلامية على امتداد العالم، بل لقد تم تشييد عدد كبير من الأبنية العامة والخاصة وفقا لذلك الطراز المعمارى فى أنحاء بريطانيا – بما جاء معبراً عن حقبة حكم "الراج" أثناء الاحتلال البريطانى للهند.

كذلك، فقد كان للحقبة الموغالية آثار واضحة فى الشعر بما خلفته من أشعار عظيمة وخالدة، كذلك فقد أسست تلك الحقبة لقواعد الموسيقى الكلاسيكية الهندية. بل إن أشهر أطباق الطعام الهندى فى العالم تتبع نمط الطهو بشمالى الهند، وهو مزيج رائع للمطبخ الهندى التقليدى، ونمط الطهو الفارسى ... مزيج يعرف باسم "الطهو الموغالى". أما اللغتان الشقيقتان الهندية والأوردية فتمثلان تمازج الألسن الفارسية، والعربية، والتركية، ودمجها فى قاعدة نحوية خاصة بلسان الشمال الهندى، وتظل تانك اللغتان أبرز اللغات السائدة اليوم بشمالى الهند، وباكستان. وبعبارة موجزة، فإن الحضارة الهندية المعاصرة لا يمكن تخيلها بدون ذلك العنصر الموغالى. وبالرغم من ذلك، فلا يروق الأمر لعدد من القوميين الهندوس.

أما فيما يتعلق بالتمازج المشترك، فإن أحد التأثيرات الكبرى فى الإسلام يظل أقل ملاءمة ... ذلك هو النظام الطبقى الاجتماعى الهندوسى وأثره فى المسلمين

الهنود. فوفقا لذلك النظام، يولد المرء ليحتل مكانا محددا فى السلم الطبقى طيلة حياته ... ولا يتغير ذلك الوضع الطبقى وفقا للاعتبارات الطقوسية والاجتماعية. إذ يجب ألا يمس أى فرد من أبناء الطبقة العليا أيا من المنبوذين (أفراد الطبقات الدنيا)، فإذا ما حدث ذلك توجب على الأول أن يتطهر من ذلك وفقا لمظاهر طقوسية. كذلك، فإن وضعية المرء فى تلك التراتبية تحدد المدى الذى يسمح له بالتحرك خلاله فيما يخص الاعتبارات الوظيفية والاجتماعية. ولطول تعرضهم لذلك النظام الطبقى عبر فترات زمنية ممتدة، تشرب المسلمون بالهند بعض عناصره حيث أصبح المجتمع الإسلامى هناك ينقسم رسميا إلى طبقتين : الأشراف (أو النبلاء) والأجلاف (أو الأقل شأنا). وفيما مثل المسلمون فى الهند نسبة قليلة للغاية من تعداد السكان حين غزا المسلمون شمال الهند للمرة الأولى، إلا أنه، وبمرور الوقت، أخذت أعداد متزايدة من الهندوس فى اعتناق الاسلام، مع ما صاحبهم من بقايا اجتماعية لوضعهم الطبقى الأدنى. وقد بلغ المسلمون فى الهند، وقت التقسيم (١٩٤٧) ما نسبته ١٤٪ من إجمالى تعداد السكان.

إلا أنه، ووفقا لمقتضيات الشرع الإسلامى، فإن أى نظام طبقى فيما بين المسلمين يعد مرفوضا بالارتكان إلى أى معيار دينى، إذ يعلن "القرآن" بجلاء أن معايير التمايز والتفاضل فيما بين البشر كافة هو التقوى. على أننا نشهد الأثر الثقافى والحضارى المتبادل نتيجة لتعايش الأديان جنبا إلى جنب فى شبه القارة الهندية.

وينجم عن ذلك كله عدة مشاهدات وانطباعات مذهلة. أولا : لم يكن هناك أدنى احتكاك ملحوظ بين المسلمين وغيرهم حين دخل الإسلام جنوب الهند عبر التجار والمبشرين. فقد كان المسلمون فى الجنوب متماثلين إثنيا مع جيرانهم من الهندوس. إلا أنه كانت ثمة تباينات إثنية فى الشمال الممثل للنفوذ السياسى هناك. وبالأساس، فقد مثل المسلمون ذوو الأصول التركية الفارسية والنازحون من آسيا الوسطى غزاة من خارج الهند، حيث تم النظر إليهم باستياء من قبل أولئك الذين

أبعدوا عن مقاليد السلطة والنفوذ. وتكمن الظاهرة الثانية فى كيفية نجاح العقائد "غير المتوافقة" فى التعايش فيما بينها فى ظل ظروف التعاطى البشرى اليومى، بل وحتى تأثيرها المتبادل، ذلك على الرغم من وجود حالات من العنف بين تلك الطوائف الدينية. والأمر الثالث هو انبثاق ثقافة متمازجة اشتملت على خليط من الحضارات السائدة كانت آية فى البهاء والروعة لا تقل فى رونقها عن امتزاج الإسلام بالحضارة الفارسية فى إيران، كما لا تقل عن تزاوج العنصر الإسلامى التركى مع الحضارة البيزنطية فى الإمبراطورية العثمانية.

إذاً، فوفقاً لتلك الديناميكية الفائقة، والتى اشتملت على تلاقح إثنى خصيب بالإضافة إلى تأثيرات حضارية ودينية متبادلة ... فإن "الحدود الدموية" هنا تضحى غير ذات موضوع. فهل كان لفارس الزرادشتية أن تمتنع عن غزو الهند؟ وعلى أى نحو كان هذا الغزو ليختلف عن غزو المسلمين لها؟ هل كانت العناصر التركية غير المسلمة فى آسيا الوسطى لتحجم عن الانضمام لجماعات وعناصر أخرى لغزو الهند من جهة الشمال؟ ... من الجلى أن الإسلام لم يكن العنصر الحاسم فى ذلك كله.

التقسيم

المسلمون: أين هم اليوم؟

مع الانهيار التدريجى للإمبراطورية الموغالية، نتيجة الاعتداءات الإمبريالية البريطانية، أخذ النظام الموغالى يفقد نفوذه وسلطانه، مما أدى إلى تراجع تدريجى فى مكانة المسلمين بالهند. كذلك، فقد لمس البريطانيون قدرا من المقاومة لحكمهم لدى المسلمين يفوق نظيره لدى الهندوس، ومن ثم شروعهم فى إعطاء أفضلية وحظوة أكبر فى حكمهم ونظامهم للهندوس كونهم أكثر استجابة وألين عريكة.

ولقد كان المسلمون، بالفعل، ينشطون بفاعلية كبيرة فى العديد من مظاهر الاحتجاج والمقاومة ضد حكم "الراج" البريطانى، وخاصة دورهم المحورى فى

التمرد الهندى الكبير فى عام ١٨٥٧، حين تظاهر المجندون المسلمون فى الجيش البريطانى، وقاموا بأعمال شغب نتيجة الشائعة التى سرت ومفادها استخدام دهن الخنزير فى صنع ذخائر الطلقات الرصاصية لبنادقهم. وقد أعرب الهندوس، لاحقا، عن مقاومة مماثلة لتلك. وكان الاستياء السياسى والاجتماعى فى الهند المحتلة من قبل بريطانيا قد بلغ أشده بما يكفى لشرارة حادثة كتلك لإشعال ثورة قومية هناك. وفى وجه نفوذ الحكم البريطانى وسطوته، اتحد المسلمون والهندوس، عامة، للحد من وطأته وإن اختلف المنهج التكتيكى لتداول الأمر فيما بين الطرفين.

وفى حين أخذت القوة الإمبراطورية للموغالية فى الضمور تدريجيا وكذلك حين غزا البريطانيون الهند، وجد المسلمون أنفسهم أقلية بلا نفوذ داخل النظام السياسى الهندى فضلا عن نظرة البريطانيين المتشككة إزاءهم، والذين تساءل بعضهم فيما بينهم ما إذا كان المسلمون ثوريين بالفطرة ضد الحكم الأجنبى عامة. وباقتراب يوم التحرر الهندى من قبضة الحكم البريطانى فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، أصبح المسلمون قلقين للغاية بشأن الدفاع عن حقوقهم كأقلية فى الهند فيما بعد الاستقلال. وكان المسلمون يخشون أنه فى ظل نظام ديمقراطى صريح، يمكن أن يكون مآلهم أن يصيروا، وعلى الدوام، أقلية لا صوت لها. لذلك، فقد كانوا يفضلون شكلا أو صيغة لنظام كونفدرالى لا يكونون بمقتضاه على الدوام أقلية هامشية (وهو مأزق تقليدى يواجه جميع الأنظمة الديمقراطية، والتى نادرا ما تستطيع الأقليات فى ظلها تغيير النظام بالالتجاء إلى صناديق الاقتراع). وفضلا عن ذلك، لم يكن المسلمون بالهند وحدة متجانسة، وإنما كانوا منقسمين وفقا للطبقة الاجتماعية، وكذلك وفقا للاختلافات الإقليمية واللغوية.

وأخيرا، فلم يكن التقسيم الفعلى للهند إلى دولتين (الهند وباكستان) الهدف المفضل للمسلمين هناك. ولكن تحت ضغط الأحوال والظروف السائدة حينذاك، وكذا مخاوف الهندوس بشأن القيود التى قد يفرضها المسلمون على القوة المركزية

للهند المستقلة مستقبلا، بزغ "التقسيم" فجأة كخيار مناسب للأطراف كافة فى الهند.

إن الكثير من "العلماء" المسلمين فى الهند قد عارض تقسيم البلاد وإنشاء دولة إسلامية مستقلة جديدة (باكستان). كذلك، فقد ارتأوا، وقد حالفهم الصواب، أن المسلمين لن يرحلوا جميعا إلى باكستان، وأن هؤلاء المسلمين الذين سيبقون داخل الهند بعد الاستقلال سيصبحون أقلية (أدنى عدديا عما كانت قبل الاستقلال) تتلاعب بها الأغلبية الهندوسية ذات النفوذ. وعلى وجه التقريب، فقد عبر ١٤,٥ مليون مواطن الحدود المنشأة حديثا سواء إلى داخل الهند أو إلى خارجها خلال عملية التطهير العرقى تلك، والمدارة من قبل بريطانيا عام ١٩٤٧، والتى أطلق عليها لفظة "التقسيم". ولقد اتسمت تلك العملية بمظاهر عنف مروعة واسعة النطاق وذلك خلال انتقالات الأهالى عبر الحدود، وما صاحب ذلك من مجازر وحشية بين معتنقى المعتقدات الثلاثة السائدة : السيخية، والإسلام، والهندوسية. وقد كانت المحصلة أن المهاجرين الجدد – المسلمين بانتقالهم نحو باكستان، والسيخ والهندوس صوب الهند – قد عانوا الإيذاء والتنغيص أثناء تلك الرحلات، وأصبحوا فى عداد أكثر الأفراد غير المتسامحين دينيا فى كلا المجتمعين الجديدين. إذاً، فقد منّت السياسة قنابل موقوتة جاهزة للانفجار فى كلتا الدولتين. وبطبيعة الحال، فإن الوضع بالنسبة للمسلمين الذين لم ينتقلوا إلى باكستان قد أصبح أكثر سوءا، فلم يقتصر الأمر على تقلصهم عدديا وفقدانهم لأى نفوذ سياسى، بل تعداه بأن أصبح ولاؤهم للدولة الهندوسية الجديدة موضع شك وريبة. وفى الحروب الثلاث، والتى ستنشب فيما بين باكستان والهند فى السنوات التى تلت ذلك، أصبح الهندوس ينظرون إلى المسلمين بالهند بأنهم لا يعتمد عليهم ولا يوثق بهم ... بل وصل الأمر إلى حد اعتبارهم "طابورا خامسا" محتملا.

أما فى كشمير، فقد كان الوضع مضطربا كذلك. لقد كانت كشمير مقاطعة ذات أغلبية مسلمة (٧٧٪ عام ١٩٤٧) وطابع تاريخى وإثنى مميز. ولقد وعدت

كشمير من قبل البريطانيين عام ١٩٤٧ الحق فى استفتاء شعبى يقضى بموجبه ما إذا كانت المقاطعة ستظل تابعة للهند أم ستئول تبعيتها لباكستان. ولكن تم النكث بالوعد، إذ كان من المؤكد أن الهند ستخسر المقاطعة ما إذا كان الاستفتاء الشعبى ليتم بحيدة ونزاهة. وإلى اليوم، فما زالت الأغلبية المسلمة بكشمير تتملكها مشاعر الغضب والاستياء، وما زالت تتظاهر من أجل حقها فى الاختيار. إن السلطات الهندية قد حكمت البلاد بقبضة فولاذية وأدارت كشمير برعونة وانعدام كياسة. فإلى جانب حروب ثلاث دارت رحاها بين باكستان والهند، فى جانب منها حول كشمير المتنازع عليها ... تلك الحروب التى خسرتها باكستان جميعا – فإن ذلك "الملف" يتيح بيئة خصبة لكى تمارس باكستان ضغوطا على الهند من خلال الدعم المستتر الخفى للحركات الانفصالية الكشميرية المسلحة. ولا ريب فى أن تلك المعارك الممتدة فيما بين الطرفين تعمل على إفساد العلاقات بينهما حتى اليوم، فضلاً عن كونها مصدراً رئيسياً للإرهاب الإقليمى.

يشكل المسلمون ، اليوم، ١٣٪ من إجمالى تعداد السكان بالهند، على وجه التقريب. وللأسف، فإن الجماعة الإسلامية هناك قد أصابها التشرذم والانقسام. فمن جهة، تضغط العناصر الأكثر تشددا دينيا لإقامة مجتمع إسلامى منفصل ومستقل ذاتيا يمكنه العيش بمعزل عن الهندوس – وهو أمر محال لانتشار المسلمين إذ يتوزعون على جميع أرجاء البلاد ككل. ولقد أسهمت تلك السياسة التى تروج لهوية جماعية، مهما كانت العواقب، فى زيادة عزلة المسلمين بالهند. ومن جهة أخرى، تسعى جماعات صغيرة من المسلمين لتجاوز مفهوم "الجمعية"، وتنادى بالاندماج فى الدولة الهندية "العلمانية". فوفقا لتلك الجماعات، فإن التماس "البعد الجمعى" واعتباره الملاذ الآمن هو ممارسة تنطوى على الشعور بالخوف وافتقاد الأمان، أما السعى للتكامل فى إطار صيغة "علمانية" فيعكس الشعور بالتفاؤل والثقة. وبالطبع، فلدى كل فريق ما يكفى من الحجج لإثبات صحة مذهبه ولدعم موقفه المتبنى.

على أن الخيار لا ينحصر فى أيدى المسلمين فحسب. إذ نشأت فيما مضى حركة قومية هندوسية قوية ذات طابع إثنى/دينى، واستهدفت العناصر غير الهندوسية، وبخاصة المسلمون، والذين تراهم الحركة حجر عثرة فى طريق إنشاء دولة دينية هندوسية. ولقد أثرت الحركة، وتدعى "حزب بهاراتيا جاناتا"، فى سياسات الهند القومية فيما مضى، وقد تكرر ذلك مستقبلا عن طريق النفاذ إلى العديد من حكومات الولايات الهندية والسيطرة عليها. ويعد العنف الممارس من قبل "القوميين الهندوس" تهديداً بالغاً لجماعة المسلمين فى الهند... والتى تحصرهم جميعا فى كيان مجتمعى شديد الانعزالية.

أما القومية الهندوسية فلا يمكن أن تنبنى إلا على أسس دينية، إذ لا توجد "إثنية هندوسية" فى حد ذاتها. فالهندوس ينحدرون من خلفيات إثنية ولغوية بالغة التنوع، كما الحال بالنسبة للمسلمين. وبخلاف الزعامات الهندوسية الأكثر ميلا نحو "العلمانية"، فإن "القوميين الهندوس" كانوا شديدى التأييد لتقسيم الهند عام ١٩٤٧، تحديدا لطرد المسلمين منها بما يكفل إنشاء دولة هندوسية. ولعل بعضا من استياء الهندوس من المسلمين، والسيخ، والمسيحيين وكراهيتهم لهم يجد أساسه فى أن مجرد وجود تلك الطوائف فى الأراضى الهندية يستلزم الإبقاء على دولة هندية علمانية ذات تعددية ثقافية، وهو بعينه ما يسعى "القوميون الهندوس" إلى اجتثاث جذوره. وللمفارقة، فإن المسلمين، اليوم، هم الذين يؤيدون بشدة إنشاء دولة علمانية، وهو أمر لا يجد نظيرا فى أى من البلدان الإسلامية، فلكونهم أقلية، يدرك المسلمون تماما المنافع التى ستتحقق لهم جراء إنشاء "الدولة العلمانية" من الإبقاء على سمات ثقافتهم، ومجتمعهم، ومعتقدهم، والحفاظ عليها ضد أى تدخل رسمى من الدولة هندوسية المعتقد. وبصفة عامة، يشعر المسلمون فى الهند بأن ثقافتهم، وحضارتهم بالهند أكثر غنى وخصبا من تلك الخاصة بباكستان ... باكستان التى طالما اعتبرت هملا إقطاعيا لا يتسم إلا بموروث ثقافى هزيل. فالمآثر الثقافية والحضارية الكبرى للهند إبان الإمبراطورية الموغالية قد بقيت ضمن الأراضى

الهندية بعد التقسيم، ما عدا ما تعلق بمدينة "لاهور".

وفى تلك الأجواء، فإن الانتفاضات الجمعية لم تخب مطلقا. إذ أصبحت مدينة "أيوديا"، فى الشمال الشرقى من الهند، بؤرة مثقلة ومشحونة بانفعالات كلا الطرفين. وتعد المدينة أحد المزارات المقدسة الستة لدى الهندوس، كما أنها تشتهر بسحر طبيعتها، وجمال معابدها الشامخة. ومنذ نحو تسعمائة عام، تم مهاجمة تلك المدينة ونهبها بواسطة قوات مسلمة قدمت من أفغانستان. أما بابور، مؤسس الإمبراطورية الموغالية، فيقال إنه أقام مسجدا هناك. وقد ادعى الهندوس، بعد ذلك بكثير، أن ذلك المسجد قد أقيم فى موقع أحد المعابد الهندوسية (معبد راما)، ولو أن الدليل على ذلك لا يرقى لمرتبة اليقين. ولقد كان هذا الموقع هو الذى تم اختياره من قبل حزب "بهاراتيا جاناتا" عام ١٩٩٢، حين قررت أن تخلق تحديا هندوسيا صارخا ضد مفهوم الموغالية، والهند المسلمة. ففى أعقاب استعدادات وتنظيمات ممتدة، نظم الحزب مسيرات ضمت نحو ١٥٠ ألف هندوسى، تم تسليحهم بمعاول لمهاجمة مسجد "بابرى" الذى تم تحطيمه إلى أشلاء صغيرة. وقد كانت رمزية الحدث هائلة لكلا الطرفين ... ذلك الحدث الذى أطلق موجات من الثأر المتبادل على امتداد الأراضى الهندية. وقد كان لهذا الحدث أصداء فى "أيوديا" عام ٢٠٠٥، حيث أقدم خمسة مسلحين مسلمين على تفجير المقر المؤقت لمعبد راما الجديد فى المكان الذى كان يشغله قديما، إلا أن الحادث قد أسفر فقط عن مقتل جميع أولئك المسلحين.

لقد أدت نشأة "شيف سينا"، الحزب القومى الهندوسى، ومقره بومباى – إلى زيادة استقطاب المشاعر الإثنية والدينية فيما بين الطرفين فى ولاية ماهارشترا. ولقد استهدف الحزب، لكراهيته الشديد لهجرة هنود الجنوب لبومباى، المسلمين بصفة خاصة، والذين يبلغ تعدادهم نحو ١٥٪ من إجمالى سكان بومباى. كذلك، فقد تبنى الحزب قيما فوق قومية، ولغة خطابية بليغة، كما تخصص فى تجنيد قاطعى الطرق بغرض ترهيب مسلمى الجوار وترويعهم، فيما استطاع، فى الوقت

ذاته، إحكام قبضته على إدارة الحكم بالمدينة وتسييرها باقتدار ملحوظ. وفى عام ١٩٩٢، نشبت أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين فى بومباى، حيث قتل نحو ٩٠٠ شخص، أكثرهم من المسلمين الذين أُحرق أغلبهم أحياء. ولقد أسفرت تقارير لجنة التحقيقات الرسمية عن ضلوع "شيف سينا" فى التحريض على أعمال الشغب تلك. وفى آذار/مارس ١٩٩٣، وفى ردة فعل إزاء تلك الأحداث، تم تفجير ثلاث عشرة قنبلة فى بومباى أسفرت عن مقتل ٢٥٠ فرد. وقد أعزيت تلك التفجيرات إلى تنظيم يتبع المافيا الإسلامية. وبذا، فقد نشأت سلاسل متفرقة من العنف السجالى فى غير موضع من الأراضى الهندية.

وفى كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، وقع اعتداء وقح حين أقدم خمسة مسلحين مسلمين على مهاجمة مبنى البرلمان الهندى فى نيودلهى فى رابعة النهار. وللطف الأقدار، اقتصرت الوفيات على أفراد الحراسة وجميع المسلحين. بيد أن الصدمة القومية التى أحدثها هذا الاعتداء على رمز كبير له دلالته كالبرلمان، كانت هائلة. ولقد ذكرت السلطات الهندية، بعيد التعرف على مرتكبى الحادث، أنهم ينتمون إلى "جيش الراشدين" و"جيش محمد"، وهى جماعات تتخذ من باكستان مقرا لها ... جماعات تلقت دعما باكستانيا طيلة السنوات السابقة لتنفيذ عمليات بعينها فى كشمير.

أما عام ٢٠٠٢، فقد شهد أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين فى ولاية "غوجارات"، كانت مروعة على نحو خاص حيث لقى نحو من ألفى مسلم حتفهم أثناء تلك الأعمال. فوفقاً "للجارديان" البريطانية :

فى ولاية "غوجارات" الهندية، ووفقا لمسح محلى، تم تدمير ٢٣٠ أثراً إسلامياً فريداً وتخريبها، احتوت مسجداً بالغ الروعة بنى منذ أربعمائة عام وذلك خلال أعمال الشغب الأخيرة ضد المسلمين هناك. وقد ذكر المختصون أن التدمير كان واسع النطاق بحيث يضاهى الحدث الأكثر شهرة لتدمير "باميان" البوذية فى

أفغانستان، أو تحطيم معابد البوذيين فى جبال التيبت على أيدى الحرس الأحمر. وفى انتهاكات على الجانب المقابل، عمد الغوغائيون الهندوس إلى تدمير واجهات المساجد، وإلقاء الأحجار لتحطيم الزخارف والنقوش الفارسية، وإضرام النيران وإحراق نسخ أثرية من "المصاحف القرآنية" ... "لقد كان هذا سعيا حثيثا منظما لمحو حضارة برمتها وإزالتها"، كما ذكرت السيدة/تيستا سيتالفاد – مؤسسة الكيان المعارض للكفاح والصراع الجمعى، والذى حمل اسمها، والقائم على جمع ما تعلق بتلك الانتهاكات.

لذا، يجب النظر إلى الاعتداء الإرهابى المروع للجهاديين الإسلاميين فى بومباى فى كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ باعتباره إحدى حلقات سلسلة ممتدة : فقد حصد ذلك الاعتداء، بلا تمييز، نحو ألفين من الأرواح على نحو عشوائى، فى هجمات متعددة على بعض الأماكن العامة والفنادق الكبرى – وهو من نوعية الأحداث التى أدت إلى هجمات مضادة بحق المسلمين فى الهند، بالرغم من كونها قد بدت وكأن لم تكن يد ضالعة بها. وترسخ تلك الحوادث جميعها عدم شعور المسلمين، جمعيا، بالأمان، وتقود إلى جعل الهوية الإسلامية فى حالة من الترقب والدفاعية، والتى أضحت سمة للمجتمعات المسلمة على امتداد معظم أرجاء العالم الإسلامى.

وفى دراسة عن "التوترات الجمعية" فى الهند أجرتها مكتبة الكونجرس الأمريكى عام ١٩٩٥، أعزيت معظم أعمال العنف الجمعية هناك، لا إلى "العداءات التاريخية"، ولا إلى الأصولية الدينية، على نحو كبير، وإنما إلى تضافر المشكلات السوسيواقتصادية، واستراتيجيات وتكتيكات الساسة الهنود غير المسئولة من عام ١٩٨٠ . كما أوضحت تلك الدراسة الطابع المقلقل للتحضر متنامى الوتيرة، وما يحدثه من عدم استقرار، وكذلك التنافس المتزايد بين الجماعات المختلفة لتوفير متطلبات المعيشة. وفضلا عن ذلك، فقد حددت الدراسة التغيرات التى طرأت على مسيرة العملية السياسية فى الهند، والتى أفضت إلى استغلال السياسيين

للمشاعر الدينية على نحو خطير، والانحياز الشوفيني لطبقة الهندوس ذات الأغلبية العددية ... كل ذلك من أجل مكاسب انتخابية قصيرة الأجل. ولقد أسهمت أعمال العنف التى قادتها الجماعات الإسلامية من حرب العصابات فى كشمير، والعنف الذى قاده السيخ فى إقليم "البنجاب" – فى شعور الأغلبية الهندوسية بأن "الأقليات الدينية تعمد إلى توظيف التكتيكات العدوانية للحصول على امتيازات خاصة من الحكومة". وخلصت الدراسة إلى أن "استغلال الساسة والمجرمين للتوترات الدينية فى الهند قد أبرز بجلاء المدى الذى أضحت بمقتضاه المشاعر الدينية هناك وسيلة للمناورة والضغط".

وقد أشارت مجلة "تايم" الأمريكية، فى تغطية خاصة لها عام ٢٠٠٣ عن أعمال الشغب فى الهند، إلى الصدع الكبير والتباين السافر فيما بين الهندوس والمسلمين هناك. فوفقا لمعيار "العنف" فحسب، نجد :

المسلمين فى الهند أكثر عرضة لأن يكونوا ضحايا الهجمات والاعتداءات العنيفة، وذلك مقارنة بالهندوس. ففى جميع أعمال الشغب "الجمعية" منذ الاستقلال، كشفت السجلات الرسمية للشرطة الهندية عن أن ثلاثة أرباع الأرواح المزهقة والممتلكات المدمرة كانت من نصيب المسلمين ... وهى النسبة التى قفزت إلى ٨٥٪ خلال أعمال الشغب فى ولاية "غوجارات" عام ٢٠٠٢ .

إلا أنه فى أعمال الشغب التى قادتها الأغلبية الهندوسية (اعتبارا من عام ٢٠٠٣)، والتى أسفرت عن ستة آلاف قتيل، على وجه التقريب، لم تتم محاكمة أولئك المسئولين عن حوادث الاغتصاب، وإحراق الممتلكات، والقتل إلا فيما ندر. على أن التأييد الضمنى للحكومة الهندية، على الصعيدين المحلى والقومى، فى ظل حزب "بهاراتيا جاناتا" – لأعمال العنف من قبل الهندوس هو ظاهرة يصعب إخفاؤها.

كذلك أشارت مجلة "تايم" إلى أن ٤٠٪ من المسلمين فى المدن الهندية يقبعون فى الشريحة الدنيا للدخول بالمقارنة بـ ٢٢٪ من الهندوس. وبالرغم من أن المسلمين

يشكلون ١٣٪ من إجمالى تعداد السكان بالهند، إلا أنهم يشغلون فقط ٣٪ من إجمالى الوظائف الحكومية، بل وتقل النسبة لمن يتم تشغيلهم بواسطة الهندوس فى القطاع الخاص. ويبلغ معدل الأمية بين المسلمين فى المدن الهندية نحوا من ٣٠٪ بالمقارنة بـ ١٩٪ فى صفوف الهندوس. وقد أورد رئيس أحد الأحزاب الهندوسية المعتدلة تعليقا جاء فيه : "هناك اتجاه سائد فى الهند للنظر إلى المسلمين وفق صيغة "هم"، لا وفق صيغة "نحن". وبالطبع، فإن لهذا الاتجاه عواقب وخيمة. وإلى اليوم، وعلى وجه العموم، لم يتم السماح لمسلمى الهند بالانخراط فيما نطلق عليه "التيار السائد" فى بلادنا".

إن انبثاق القوميات فى الهند هو، بالفعل، محرك معاصر للعديد من القوى المتفاعلة آنيا : ردات الفعل المناهضة للكولونيالية، الاتجاه "الوطنى" والشعور "القومى"، التمايزات الإثنية والطبقية والإقليمية، إلى جانب التنافس الاقتصادى. وتظهر الأحداث المضطربة التى خيمت على مجريات التاريخ المعاصر فى الهند – مدى قبح القوى المحركة للنعرات القومية ورداءتها حتى فى ظل نظام ديمقراطى.

إلا أن الخبرة التاريخية للمسلمين فى الهند تسفر بجلاء عن التعايش المثمر الذى تقاسم بمقتضاه الطرفان المسلم والهندوسى إثراء أحدهما للآخر. فالحضارتان، الآن، مترابطتان ارتباطاً وثيقاً، كذلك فلا يستقيم الحديث عن وجود "حدود حضارية" فيما بينهما، وينحصر خيارهما فى إيجاد صيغ جديدة للتعايش المشترك فى ظل الدولة الهندية. ففى هذا الإطار، أسهم الإسلام، بفاعلية، فى التأثير الكبير فى مجريات المسار التاريخى فى الهند، وذلك، بالأساس، من خلال التكامل، والاندماج، والانصهار فى المجتمع. فالمسلمون، فى الهند، ليسوا كلا متجانسا، فهم متفاوتون تفاوتا ملحوظا، كذلك فهم موزعون على أرجاء شبه القارة الهندية. ولكن، وللمفارقة، فإن الإسلام يمثل الآن تجسيدا لمشاعر الاستياء لدى الأغلبية الهندوسية بشأن العديد من القضايا التى لا تمس "الدين"، فى جوهره، من قريب أو بعيد، بل تجد جذورها فى الصراعات "الجمعية" المتنوعة من أجل امتلاك

مقاليد السلطة والهيمنة. ووفقا لهذا السياق، فإن المسلمين هم مجرد جماعة واحدة من بين العديد من الجماعات التي ينتظمها الفكر "الجمعي"، والتي تتنافس فيما بينها في ظل مناخ من العنف والتشاحن. فالدور الذي تضطلع به باكستان، بهويتها القومية غير المستقرة، ومخاوفها الجيوبوليتيكية القلقة، وضلوعها في أحداث كشمير وأفغانستان – يعمل على زيادة حدة المشكلة. وبالطبع، فسيكون أحد المشاهد المأساوية، في عصرنا الراهن، أن نرى قيام القوى ضيقة الأفق المنتمية لجميع الفصائل المتناحرة بتمزيق أواصر تلك الفسيفساء الحضارية والثقافية شديدة التداخل، وتقطيعها إرباً.

ويبقى السؤال المنطقي : هل إذا لم يكن ثمة حكم بريطاني للهند باعتبارها إحدى المستعمرات التابعة للتاج، أكان من المحتم أن نشهد تقسيما للهند على النحو الذي جرى؟ وهل ما إذا استشرت عوامل الضعف في جسد الإمبراطورية الموغالية، على نحو تدريجي من ولاية هندية إلى أخرى، أكان للهندوس والمسلمين أن يقوموا بتجربة بعض الاقترابات غير الناجعة لمصالحهم، والإبقاء على مفهوم "الهند الموحدة" كهدف مشترك، ولو على أساس فيدرالي؟ ... يبدو ذلك أمرا محتمل الحدوث. كذلك، يبدو من غير المحتمل أن يكون ثمة تفكير في ميكانيزمات للتقسيم، أو تنفيذ ذلك الأمر بواسطة الهندوس والمسلمين بمفردهم، فقد استدعى ذلك تدخل قوة إمبريالية كبرى ذات سلطات كاسحة لإنجاز ذلك التقسيم على أرض الواقع. ويبدو أن السيطرة الإمبريالية البريطانية على الهند على امتداد عدة مئات من السنين – وليس "الإسلام" بحد ذاته – هي المفتاح للإجابة عن أسباب إجراء ذلك التقسيم "النكد"، وغير الضروري ودوافعه... والذي ظل "عقيما"، وعاجزا عن الإتيان بأية حلول على وجه الإطلاق.